خاقانيات البحتري

د/ شيماء محمود خميس

دكتوراه في الدراسات الأدبية والنقدية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على (خاقانيات البحتري)، وهي تلك الأشعار التي قالها (البحتري) في (الفتح بن خاقان) وزير الخليفة العباسي (المتوكل). والبحتري هو ذلك الشاعر الأعرابي المطبوع، الذي ما فارق عمود الشعر، وتميزت أشعاره بالسهولة واليسر، والبعد عن التعقيد، اتصل بالخليفة (المتوكل)، ولازمه، فمدحه، ومدح وزيره (الفتح بن خاقان)، وكان بمثابة شاعر بلاطه.

وقد حاولت في بحثي هذا أن أتناول نماذج من هذه الخاقانيات بالدراسة الفنية، فقد نظم البحتري العديد من القصائد في الوزير (الفتح بن خاقان)، وتنوعت أغراضها ما بين مدح، وعتاب، واعتذار، ورثاء. فتناولت هذه النماذج بالتحليل الأدبي، مبرزة أهم سماتها الفنية، ومدلولاتها الجمالية، مع الوقوف عند الملامح البلاغية التي تميزها، ومحاولة استنطاق النص الأدبي، واستكناه أسراره عبر مستوياته المتعددة.

Research Summary

This research aims to highlight poems which were composed by (Al Bohtory) in (El Fatteh Ibn Khaquan) the minister of Al Abasy caliph (Al Motawakl). The Arabic authentic, talented and unbelievable poet had deepened in traditional poems, never separate from it. The essence of his poems characterize basically by their flexibility and smooth totally far from complixity. (Al Bohtory) kept in touch with the caliph (Al Motawakl) followed, praised him and his minister (El Fatteh) who took him as the caliph royal poet.

Professionally, in my research, I take up examples of these (Khaquaniat). Specifically, (Al Bohtory) had composed different poems for his minister. The poems` objectives have variety of praise, blame, apology and lamentation. According to these examples, I showed them with literary analysis, focused on the most important artistic features and rhetorical meanings that distinguish them and attempt to motivate and explore the literary work and its secrets through various levels.

هو الوليدُ بن عُبَيْدِ الله بن يحيى بن عبيد بن شِمْلال بن جابر بن سلمة بن مُسْهِر ابن الحارث[1] المعروف بالبحتري نسبة إلى عشيرته الطائية بحتر، ولد عام (٢٠٤هـ-٢١٨م) بمنبج ، وقيل بِزَرْدَفَنَة، وهي من قراها، ونشأ وتخرج بها[2]. وهو أحد كبار شعراء العصر العباسي، تفجَّر ينبوع الشعر على لسانه في سن مبكرة، وكان لأبي تمام الفضل عليه في بلوغه بلاط كبار الدولة ليتكسب من مدحهم؛ فأخذ نجم البحتري يلمع في سماء الشهرة، ولم يكتف بذلك فارتحل إلى بغداد عاصمة الخلافة، ومدح الخليفة المتوكل ولازمه، وأصبح شاعر بلاطه، فمدحه ومدح وزيره (الفتح بن خاقان)، وكان ينادمهما في مجالس أنسهما، وباتصاله بهما وصل إلى أقصى مايستطيع أن يصل إليه شاعر في تلك العصور؛ فغدت حياته في ترف من العيش.

وحفظ البحتري لأبي تمام الفضل ، فعندما (قال له الحسين بن إسحاق يوماً: إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام، فقال: ما ينفعني هذا القول، ولا يضر أبا تمام، والله ما أكلت الخبز إلا به، ولودِدْت لو أن الأمر كما قالوا، ولكني والله تابع له، لائذ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه)[3]

وقد توفرت للبحتري ثقافة شعرية واسعة، نمت إليه من انكبابه على دواوين الشعراء السابقين له، إلا أنه كان منصرفاً عن العلوم الفلسفية، التي شغلت أدباء عصره، فقد مال البحتري في مذهبه الشعري إلى الإيجاز واللمح، وابتعد عن

([1]) أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – تحقيق عبد الكريم العزباوي ومحمود محمد غنيم – إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣– جـ٢١– ص٣٧.

([2]) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – تحقيق د/ إحسان عباس – دار صادر بيروت – جـ٦ – ص ٢١.

(3) ياقوت الحموي – معجم الأدباء – راجعته وزارة المعارف العمومية – مطبوعات دار المأمون – الطبعة الأخيرة – جـ١٩– ص ٢٤٩.

التطويل والتكلف، مؤثراً اللفظ على طلب المعاني والأدلة العقلية، التي شُغف بها معاصروه مثل ابن الرومي وغيره ، وهو يعبّر عن ذلك صراحة في أبياته المشهورة

كلفتُمُونا حُدودَ مَنْطِقِكُمْ ... في الشَّعْرِ يُلْغِي عن صِدْقِهِ كَذِبُهْ
ولم يَكُنْ ذو القُرُوحِ يَلْهَجُ بالـ ... ـمَنْطِقِ، ما نوعُهُ، وما سَبَبُهْ؟
والشِّعرُ لَمْحٌ تَكْفِي إشارَتُهُ ... وليس بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ[1]

وخلق البحتري لنفسه اتجاهاً خاصاً في شعره، ملتزماً ومحافظاً فيه على كل ماهو قديم، فكان بذلك خير من يمثل المدرسة المحافظة على التراث، وعمود الشعر.

فالبحتري شاعر بدوي الهوى والنشأة، كما ذكر ذاك الآمدي في مقارنته بين البحتري وأبي تمام، فقال: (وإنهما لمختلفان؛ لأن البحتري أعرابي الشعر، مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومُستكره الألفاظ)[2]. فقصائده قبل اتصاله بالمتوكل كانت تضم ألفاظاً بدوية وعرة، فضلاً عن المعاني المستوحاة من البيئة البدوية، ويروي الصولي في ذلك أن البحتري قال: (كنت أمدح المتوكل مقوماً لفظي، غير مُرسِل نفسي، فقال الفتح- وكان والله ما علمتُ، قوي الأدبِ، حسنَ المعرفة بالشعر- ، ليس بك حاجة في مدح أمير المؤمنين إلى مثل هذا، ليّن كلامك حتى يَفْهَم، فأنه يلذُ ما يَفْهَمُ، فعلمتُ أنه نصحني، فمدحته بأشعاري التي منها:

---

(1) البحتري – ديوان البحتري – تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي – طبعة دار المعارف – القاهرة – ١٩٧٧-١٩٧٨م – جـ١ – ص ٢٠٩.

(2) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – تحقيق السيد أحمد صقر- دار المعارف – ط٤- جـ١ – ص٤.

لي حبيبٌ قد لجَّ في الهجر جِدا وأعاد الصدودَ منه وأبــدا

ومنها

لِمَ لا ترق لِذُلِ عبــدِكْ وخضوعِهِ فتفي بوعــدِك

ومنها

عن أي ثغــرٍ تبتسمْ وبأي طرفٍ تَحكــم

فحظيت عنده، وقربت من قبيلته، وتوفَّرت على صلاته.[1]

أكثر شعر البحتري في المديح، وأقله في الرثاء والهجاء، وقد برع في وصف الطبيعة، وأجاد في الغزل والعتاب والاعتذار. ويرى ابن رشيق أن البحتري أحسن الناس طريقاً في العتاب، يقول: (وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحتري)[2]

لقد تميَّز شعر البحتري بحسن الديباجة، وصقل اللفظ، وسلاسة الأسلوب، والجمال الموسيقي الناجم عن مشاكلة اللفظ للمعنى. يقول ابن الأثير (أحسن في سبك اللفظ على المعنى، وأراد أن يشعر فغنَّى، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق)[3]. ويشير عبد القاهر الجرجاني إلى دقة فِكْرِه مع حسن صياغته

---

(1) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي – أخبار البحتري – حققها وعلق عليها الدكتور صالح الأشتر – دار الفكر بدمشق – ١٩٦٤– ط٢ – ص٨٦–٨٧.

(2) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني – العمدة في صناعة الشعر ونقده – عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعماني الحلبي – مطبعة السعادة – مصر – ١٩٠٧م – ط١ – جـ٢ – ص ١٢٩.

(3) أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – ١٩٣٩م – ج٣– ص٢٢٧.

قائلاً: (وإنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك من المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب، وردّ البعيد الغريب إلى المألوف القريب ما يُعطي البحتري، ويبلغ في هذا الباب مبلغه، فإنه ليروض لك المُهْرَ الأَرِنَ رِياضة الماهر حتى يُعْنِقَ من تحتك إعناق القارح المُذلَّل، وينزعَ من شِماس الصعب الجامح، حتى يَلين لك لين المنقاد الطيّع)[1].

اتّصل البحتري بالفتح بن خاقان وزير المتوكل، وقصد فيه تسع وثلاثين قصيدة ما بين مدح، واعتذار، وعتاب، واستبطاء حاجة، ورثاء، وقد قصدت في بحثي هذا تسمية تلك القصائد بلفظة (خاقانيات) نسبة لمن قيلت فيه، وهو (الفتح بن خاقان). وأورد ياقوت الحموي في معجمه ترجمة له قائلاً: (الفتح بن خاقان بن غُرْطُوج. كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب، وكان من أولاد الملوك، واتخذه المتوكل أخاً، وكان يقدمه على جميع أولاده، قُتل مع المتوكل ليلة قتل بالسيوف لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين بالمتوكلية، وكانت له خزانة كتب جمعها له علي بن يحيى بن المُنَجِّم، ولم يُرَ أعظم منها كثرة وحسناً، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين... وكان أديباً فاضلاً، زكي النفس، حسن العشرة، لطيف الأخلاق، متوداً، محبباً إلى كل من يكلمه، وكان غاية في الجود)[2]

ويذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء معرفاً به قائلاً: هو (شاعر مترسل بليغ مُفَوَّهٌ، ذو سؤددٍ وجُودٍ ومحاسن. وكان المتوكل لا يكاد يصبر عنه، استوزره، وفوَّض إليه إمْرَةَ الشام، فبعث إليها نُوَّاباً عنه، وله أخبار في الكرم والظرف

---

(1) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني – أسرار البلاغة – قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر– مطبعة المدني – القاهرة – دار المدني بجدة – ١٩٩١م – ط١– ص ١٤٦.

(2) ياقوت الحموي – معجم الأدباء – الطبعة الأخيرة – جـ١٥– ص ١٧٤وما بعدها .

والأدب... وكان أحد الأذكياء ، دخل المعتصم على الأمير خاقان فمازح ابنه هذا، وهو صبي ، فقال : يا فتح ، أيُّما أحسن داري أودارُكم؟ فقال الفتح : دارُنا إذا كنت فيها ، فوهبه مئة ألف. وكان الفتح ذا باعٍ أطول في فنون الأدب. قُتل مع المتوكل سنة سبعٍ وأربعين)[1]

مدح البحتري (الفتح بن خاقان) بقصائد عديدة، ويُعد البحتري أكبر المداحين في عصره جميعاً. يذكر أبو هلال العسكري مدحة للبحتري في (الفتح بن خاقان)، يقول فيها:

أغرُّ لنا من جودِهِ وسماحِهِ ظهيرٌ عليه ما يخيبُ وشافِعُ

ويعقب عليها بقوله: (لم يبق وجهٌ من وجوه المدح في الجود والشجاعة وثقوب الرأي، ومَضَاء العزيمة والدهاء وشدة الفكر إلا قد اجتمع ذكره في هذه الأبيات، ولا أعرف أحداً يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحه إلا البحتري)[2]؛ ولأن البحتري كان شاعر البلاط العباسي، ومدَّاحه الأول ،فأصبح المديح أهم موضوع يستنفد شعره. وتعد بائية البحتري التي يمدح بها (الفتح بن خاقان) من أروع قصائده ، والتي يستهلها بوصف الطيف، معتمداً على جمالية الاستهلال الاستفهامي قائلاً:

أجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسرِي لَزَيْنَبَا خَيَالٌ، إذا آبَ الظّلامُ تأوّبَا؟

---

(1) الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي – سير أعلام النبلاء – تحقيق صالح السَّمر – أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه شعيب الأرنؤط – مؤسسة الرسالة – ج١٢. ص ٨٢-٨٣.

(2) أبو هلال العسكري – ديوان المعاني– الموسوعة الشعرية – المكتبة – المجمع الثقافي الإمارات العربية المتحدة – أبوظبي – الإصدار الثالث ٢٠٠٣– ص ١٠١.

سرَى من أعالي الشّامِ يَجْلُبُه الكَرَى ... هُبُوبَ نَسيمِ الرّوْضِ تَجلُبُه الصَّبَا

وَمَا زَارَني، إلاّ وَلِهْتُ صَبَابَـــــة ... إلَيْهِ، وإلاّ قُلْتُ: أهْلاً وَمَرْحَبَـا

وَلَيْلَتَنَا بالجِزْعِ بَاتَ مُساعفـــاً ... يُرِيني أنَاةَ الخَطْوِ، ناعمَةَ الصِّبَا

أضَرّتْ بضَوْءِ البَدرِ، والبَدْرُ طالعٌ ... وَقَامَتْ مَقَامَ البَدْرِ لَمّا تَغَيّبَـا

وَلَوْ كَانَ حَقّاً ما أتَتهُ لأطْفَـأتْ ... غَليلاً، ولافتَكّتْ أسيراً مُعَذَّبـا

عَلمْتُكِ إنْ مَنّيتِ،مَنّيتِ مَوْعـداً ... جَهَاماً،وإنْ أبْرَقْتِ أبْرَقْتِ خُلَّبَا

وكنتُ أرَى أنّ الصّدُودَ الذي مضَى ... دَلالٌ، فَما إنْ كَانَ إلاّ تَجَنُّبـا

فَوَا أسَفِي حَتّامَ أسْألُ مَانِعـــاً ... وآمَنُ خَوّاناً، وأُعْتِبُ مُذْنبَـا؟

سأثني فُؤَادي عَنكِ، أو أتبَعُ الهَوَى ... إلَيكِ، إنِ استَعصَى فُؤَاديَ أوْ أبَى[1]

وتبلغ بائية البحتري أربعة وأربعين بيتاً، ويستغرق في وصف خيال الطيف أول عشرة أبيات. وللبحتري مذهب في وصف خيال الطيف، فقد كان مغرماً بالقول فيه؛ فأكثر فيه بتجويد وتمكن. ويشير الآمدي إلى افتتانه في ذكر الطيف، قائلاً: (أكثر، وأجاد، وأبدع، وتصرف في معانٍ لم يأت أحد بمثلها، وقد استفتح قصائد كثيرة بذكر الخيال لشدة شغفه به، فأحسن في ابتداءاته كلها، وزاد على الإحسان)[2]

وتبرز صورة الخيال التي رسمها البحتري حينما يتراجع الظلام، ويسري الخيال من أعالي الشام، والكرى هو من يأتي به، وكذا التناوب الشفيف بين البدر

---

(1) ديوان البحتري – جـ١ – ص ١٩٦–١٩٧.

(2) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي – الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – ط٥ – ج٢– ص ١٧٠.

والمحبوبة، واستعارة الجهام (أي سحاب لا ماء فيه)، والبرق الخلب لوعدها، فثمة ثنائية ضدية بين تأميلها المحب، ولكن جهاماً، ثم استعار لها البرق لكنه خُلَّب، أي إنه مطمع مُخلِفٌ، ثم يثبت لها التأميل والوعد، وينفي عنها الإنجاز والوصل ، ويثبت لنفسه سؤالها الوداد ، وينفي عنها الإيجاب ، يأمنها لكنها تخون ، يطلب رضاها لكنها مذنبة بصدودها عنه.

أقُولُ لرَكْبٍ مُعْتَفينَ تَدَرّعُـــوا ... على عَجَلٍ قَطْعاً منَ اللّيلِ غَيْهَبَا

ردُوا نائلَ الفَتحِ بنِ خَاقَانَ إنّـهُ ... أعَمُّ نَدًى فيكُمْ، وأقْرَبُ مَطلَبَا

هُوَ العَارِضُ الثَّجّاجُ، اخضَلَ جُودُهُ ... وَطَارَتْ حَوَاشِي بَرْقِهِ فَتَلَهّبَـــا

إذا ما تَلَظّى في وَغًى أصْعَقَ العِدَى ... وإنْ خاضَ في أُكرُومَةٍ غمرَ الرُّبَا

رَزِينٌ إذا ما القَوْمُ خَفّتْ حُلُومُهمْ ... وَقُورٌ، إذا ما حادثُ الدّهرِ أجْلَبَا

حَياتُكَ أنْ يَلقاكَ بالجُودِ رَاضِيـاً ... وَمَوْتُكَ أنْ يَلقَاكَ بالبأسِ مُغضَبَا

حَرُونٌ، إذا عازَزْتَهُ في مُلمّـــةٍ ... فإنْ جئْتَهُ من جانبِ الذّلّ أصْحَبَا

فَتًى لمْ يُضَيِّعْ وَجْهَ حَزْمٍ، وَلم يبتْ ... يُلاحظُ أعجازَ الأمُورِ تَعَقُّبَـــــا

إذا هَمّ لمْ يَقْعُدْ بهِ العَجْزُ مَقعَـداً ... وإنْ كَفّ لم يَذهَبْ بهِ الخَرْقُ مذهَبا

أُعِيرَ مَوَدّاتِ الصّدُورِ، وأُعطِيَتْ ... يَداهُ على الأعداءِ نَصْراً مُرَهَّبَـــا[1]

أجاد البحتري في تخلصه من الغزل إلى المديح، غير أن ابن الأثير عاب عليه تخلصه في الأغلب ، يقول: (إنه لم يُوفق في التخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضاباً، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً إلا اليسير)[2]

---

(1) ديوان البحتري – جـ١ – ص ١٩٧–١٩٨ .

(2) ابن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب – ج٢– ص ٢٦٣–٢٦٤.

لقد أضفى البحتري على ممدوحه (الفتح بن خاقان) محامداً ومُثلاً أخلاقية تعد منظومة أخلاقية متكاملة، فيصور كرمه وسعة نواله، مشبهاً إياه بالسحاب المعترض في الأفق، والمطر شديد الانصباب، معتمداً في أسلوبه على تكرار الألفاظ الدالة على الجود والكرم مكنياً ومستعيراً في (العارض– الثجاج – اخضلَّ– حواشي برقه)، ويظهر حسن التقسيم بين الشجاعة والكرم، متوسلاً بأسلوب الشرط، ثم يثبت لممدوحه الرزانة والوقار، ولغيره الخفة والطيش، ثم يثبت للفتح الجود، والبأس، والبطش، والصبر على الشدائد، والعناد الذي يجعل منه شخصاً صعب الانقياد، وكذلك يسمه بالرفق والتواضع، والحزم وتدبر الأمور وتأملها.

وفي الأبيات السابقة تأتي بنية التضاد مقترنة بأسلوب الشرط في مثل قوله: (إذا هم لم يقعد به العجز – إن كف لم يذهب به الخرق – رزين إذا ما القوم خفت حلومهم – وقور إذا ما حادث الدهر أجلبا – حرون إذا عازرته، فإن جئته...أصحبا).

وبالإضافة لذلك فالبحتري يطالعنا بحسن التقسيم بين الشجاعة والكرم، متوسلاً بأسلوب الشرط (إذا تلظَّى – أصعق العدى – إن فاض – غمر الربا)، ويبلغ البحتري بممدوحه أقصى الحزم والإقدام، وأقصى الكف والإحجام، ويبلغ به أقصى الود والرحمة وأقصى الرهبة، إذ ينطلق من الطباق اللفظي ليتجاوزه صانعاً منه أساساً لبنية ضدية مترابطة.

ثم ينتقل البحتري لوصف منازلة (الفتح بن خاقان) للأسد، قائلاً:

غَداةَ لَقيتَ اللّيثَ، واللّيثُ مُخدِرٌ يُحَدّدُ نَاباً للّقَاءِ وَمُخْلَبَا

يُحَصّنُهُ منْ نَهْرِ نَيْزِكَ مَعْقِلٌ مَنيعٌ، تَسَامَى غابُهُ وَتَأشّبَا

يَرُودُ مَغاراً بالظّواهِرِ مُكتَبا ... وَيَحْتَالُ رَوْضاً بالأباطِحِ مُعْشِبَا

يُلاعِبُ فيهِ أُقْحُواناً مُفَضَّضا ... يَبِصُّ، وَحَوْذاناً على المَاءِ مُذْهَبَا

إذا شاءَ غَادَى عَانَةً،أوعَدَا عَلى ... عَقَائِلِ سِرْبٍ، إنْ تقنّصَ رَبرَبا

يَجُرُّ إلى أشبالِهِ كُلَّ شَارِقٍ ... عَبيطاً مُدَمَّى، أوْ رَمِيلاً مُخَضَّبَا

وَمَنْ يَبْغِ ظُلماً في حرِيمِكَ يَنصرِفْ ... إلى تَلَفٍ، أو يُثْنَ خَزْيانَ، أخْيَبَا

شَهِدْتُ لقَدْ أنْصَفْتَهُ يَوْمَ تَنبَرِي ... لهُ مُصْلِتاً عَضْباً من البِيضِ،مِقضَبَا

فلَمْ أرَ ضِرْغَامَينِ أصْدَقَ منكُمَا ... عِرَاكاً إذا الهَيّابَةُ النّكْسُ كَذّبَا

هِزَبْرٌ مَشَى يَبغي هِزَبْراً، وأغلَبٌ ... منَ القَوْمِ يَغشَى بَاسلَ الوَجهِ أغلَبَا

أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ، ... رَآكَ لها أمضَى جَناناً، وأشغَبَا

فأحجَمَ لَمّا لَمْ يَجدْ فيكَ مَطمَعا ... وأقدَمَ لَمّا لمْ يجدْ عَنكَ مَهرَبَا

فَلَمْ يُغْنِهِ أنْ كَرّ نَحوَكَ مُقبلاً ... وَلمْ يُنجِهِ أنْ حَادَ عَنكَ مُنَكِّبَا

حمَلتَ عَليهِ السّيفَ لا عَزْمُكَ انْثَنَى ... وَلاَ يَدُكَ ارتَدّتْ، ولا حَدُّهُ نَبَا

وكنتَ متى تَجمَعْ يَمِينَكَ تَهتِكِ الـ ... ـضّرِيبَةَ، أوْ لا تُبقِ للسّيفِ مَضرِبا[1]

فيصف البحتري لقاء ممدوحه (الفتح بن خاقان) بالليث وهو في خدره مركزاً على نابه ومخلبه، متخذاً من نهر نيزك الذي تحف به الأشجار المتشابكة الملتفة حصناً له، واصفاً المكان الذي يتخذه سكناً له هادئاً بين الأودية العالية، حيث العشب، والنَّور الأبيض، والحوذان المتلألئ من رونقه ونضارته بين مسيل واسع فيه دقاق الحصى، واصفاً ذهابه وإيابه في طلب فرائسه، ثم ينتقل بعدها إلى الممدوح واصفاً صراعه مع الأسد، مفسراً سببه ببغي الأسد وعدوانه، ثم يجعل البحتري من

(1) ديوان البحتري – ج١ – ص١٩٩–٢٠٠.

(الفتح بن خاقان) ضرغاماً آخراً ينازل ضرغاماً، وهنا يحاول الأسد أن يجترئ على الممدوح متخذاً من زئيرة وسيلة لإخافة الممدوح، ولكن ذلك لم يجد ؛ فالممدوح أكثر استبسالاً وشجاعةً، ثم يصور حركة الأسدين الإقدام والإحجام، فحينما أقدم على الممدوح لم يجد له مفراً سوى الهرب ؛ لأنه وجد أن انتصاره على الممدوح أمراً بعيد المنال، فقد شهر الممدوح سيفه ممسكاً إياه بيد قوية مصممة على إلحاق الهزيمة بالعدو .

تُمثل الصورة الفنية في بائية البحتري لوحة متكاملة، وتتجلى هذه اللوحة الفنية أكثر شيء في وصفه لمكان الأسد ، حيث اتخذ الأسد عرينه في كهف آمن مطمئن بين أعالي الأودية وأشراف الأرض، تحف به الأشجار الكثيفة الملتفة بين الجبال، حيث العشب، والنور المتلألئ، والحوذان المذهَّب. بل تتعدى الصورة ذلك لتكتمل أكثر، فيتوسع البحتري في وصفه ليشمل وصف الأسد وهو يغدو ويروح في طلب فرائسه؛ من بقر وحشي أو إبل أو ظباء؛ ليجلب إلى أشباله فريسة فتية يتغذوا عليها ، أما المنازلة نفسها فلم يصورها الشاعر لانتهائها في نفس الوقت ، فالممدوح بمجرد أن رأى الأسد أشهر سيفه، وقضى عليه.

إن المعجم اللفظي في بائية البحتري يتسم بالعذوبة، ولعل وصف الطيف قد وضَّح هذه السمة، فضلاً عن أنه عبَّر عن أخلاق ممدوحه بمعجم لفظي، يعتمد على الطبيعة من حوله عامة، وعلى الماء خاصة مبرزاً مدى جوده وكرمه (الندى – البرق– حواشي برقه – العارض الثجاج – اخضَّل جوده –غمر البرايا)، وكذلك يتسع معجمه اللغوي فيذكر مسميات الأسد (الليث – الضرغام –الأغلب – الأشبال)، وكذلك مسميات السيف (الحسام – المجرَّب – المُصلَت – العَضب – البيض).

وللبحتري في (الفتح بن خاقان) اعتذاريات عديدة، فليس للعرب بعد اعتذاريات النابغة مثلها ، ويذكر الصولي سبب هذه الاعتذاريات

قائلاً: (سألت أبا الغوث عن سبب غضب الفتح على أبيه الموجب لهذه الاعتذارات، فقال: استبطأ بِرَّه في وقت من الأوقات ، فبلغه أنه هجاه ، وتِلبَه ؛ وكان يُحسد على مكانه منه، فيُتكذب عليه عنده)[1]

وقد اتفق النقاد القدماء والمحدثون على استحسان اعتذاريات البحتري ، فلقد كان لشاعرنا العديد من المنافسين والحساد، الذين ينقمون عليه لبلوغه مكانة عالية عند الحكام ، فأخذوا يدسون له عند الحكام والوزراء، حتى تقع القطيعة بينهم ، فلا يجد البحتري إلا الشعر وسيلة لإعادة الوصل والاعتذار.

وقد أشار أبو هلال العسكري أيضاً إلى تفوق البحتري في هذا الغرض، مشيراً إلى تفوق النابغة وتميزه باعتذارياته للنعمان، وتفرده بذلك في الشعر الجاهلي، ثم يشيد باعتذاريات البحتري في الفتح، قارناً بينه وبين النابغة، فيقول: (ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحتري، فإنه قد أجاد القول في صنوفه وأحسن وأبلغ، ولم يذر مزيداً، حتى قال بعضهم هو في هذا النوع النابغة الثاني)[2] ،لكن الاختلاف بين اعتذاريات النابغة والبحتري جلية واضحة، فالنابغة اعتذارياته تنبع من الخوف ، فهو يعتذر إذا رهب؛ ولذلك تجده يتذلل ويسترحم ويصف سوء حاله، أما اعتذاريات البحتري ففيها تنوع في الأساليب، فهو يعتذر وهو عزيز معتد بنفسه، لا تخالط نفسه أي رهبة عن محاورة من يعتذر إليه، بل وحتى عتابه، ولهذا فهو غالباً ما يجمع بين غرضي العتاب والاعتذار.

وتختلف طرق العتاب عند البحتري تبعاً لاختلاف مكانة من يعاتبه، (فقد يمتزج العتاب بالمدح، وهو الغالب على عتابه للمتوكل الذي هو أقرب إلى الاعتذار، وقد يبحث عن الأعذار التي ربما تبرر موقف من يعاتبه ، ويعيد إلى ذاكرته ما مضى من الود والصفاء، وما

---

(1) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي – أخبار البحتري – دار الفكر – ط٢– ص ٧٧–٧٨.

(2) أبو هلال العسكري – ديوان المعاني – تحقيق أحمد سليم غانم – دار الغرب الإسلامي – ٢٠٠٣م – ط١– جـ١ – ص ٢٤٠.

يكنُّه له من إعزاز وتقدير، ويغلب ذلك على عتابياته للفتح، وفي بعض الأحيان تشتد ثورة نفسه فيهدد ويتوعد، ولا ينسى الإدلال بما له من مكانة أدبية وعزة نفسية، وتتميز اعتذارياته وعتابياته بميل قوي إلى التحليل والاستقصاء، وبتعبير رقيق عن أرهف الانفعالات والخلجات النفسية)[1].

وتبرز خصائص أسلوب البحتري في النص واضحة، فيظهر فيها لطافة العبارة ورقتها، وذلك الجرس الموسيقي الرائع الذي اشتهر به، والعبارة تجري بسلاسة ويسر، وعامة يبتعد البحتري في ألفاظه عن التعقيد أو الغموض.

يقول البحتري معاتباً (الفتح بن خاقان):

أَمُخَلِّفي يافَتْحُ أَنت وظاعِـنٌ ... في الظَّاعِنِين، وشاهَــدٌ ومُغَيِّبي؟
ماذا أقولُ إذا سُئِلْتُ فحطَّني ... صِدْقِي ، ولم يَسْتُرْ عليَّ تكذُّبِي؟
ماذا أَقــولُ لشامِتِين يَسُرُّهُمْ ... ما ســـــاءَني، ولِمُنكِرٍ مُتَعَجِّبِ؟
أَأَقولُ مغضوبٌ عليَّ؟! فعِلْمُهُمْ ... أنْ لَسْتُ مُعْتَذِراً، ولست بمُذْنِبِ!
أمْ هل أقولُ تَخَلَّفَتْ بي عندهُ ... حالٌ؟...فمَنْ ذا بَعْدَهُ مُستَصْحِبِي؟
سأُقِيمُ بَعْدَك– إن أَقَمْتُ– بِغُصَّةٍ ... في الصدر لم تَصْعَدْ ولم تَتَصوَّبِ
وسأَرْفُضُ الأشعارَ إنَّ مَذَاقَها ... بمديحِ غَيْرِكَ في فَمِي لم يَعْذُبِ
لا أَخْلِطُ التَّأميـل مِنك بغيرِهِ ... أبداً، ولا أَلْقَى دَنِيَّ المَكْسَبِ[2]

ونلحظ أن الأبيات السابقة تضم عدداً كبيراً من التساؤلات، وكثرة التساؤلات تلك لا تنبع إلا من نفس قلقة مشتتة، لقد كان لموقف الفتح جل الأثر على نفس البحتري، حيث

---

(1) صالح اليظي – البحتري بين نقاد عصره – دار الأندلس للنشر والتوزيع – ص ١١٣.
(2) ديوان البحتري – جـ١ – ص ١٤١.

إنه أطاع الوشاة والحاقدين وأنجح مقصدهم، وانصرف عن البحتري ، وتركه وحيداً؛ فكان لهذا الفعل عظيم الأثر على نفس البحتري. فتشتت نفسه وتبعثرت، فأخذ يعاتبه متمنياً عودة الود بينهما كما كان، ومتحيراً من حاله بعده، فهو لايدري كيف المخرج؟ وكيف التصرف إزاء هذا الموقف؟ فماذا عساه يقول للشامتين؟ وماذا عساه يفعل ليعيد الود؟ بل أيتحرى الصدق في قوله عندما يُسأل؟ أم ينتحي الكذب ليلوذ بالفرار من إسعاد الشامتين؟ وكيف يعيش بَعد بُعد الفتح عنه؟ وكيف تحلو له الحياة في غيابه؟

إنه كمٌّ هائلٌ من التساؤلات قد ضمَّنها البحتري أبياته السابقة، واستطاع من خلال ذلك أن يعبر عن حالته النفسية القلقة، التي أصبحت مترددة متحيرة، تشعر بمأزق لا تستطيع مواجهته، ويتخذ من التكرار وسيلة للتعبير عن قلقه. فيكرر الفعل (أقول) ثلاث مرات متحيراً، ويجمع بين الأضداد اللفظية معبراً عن حالته النفسية المتأرجحة بين الأمر ونقيضه، مثل (صدقي وتكذبي – يسرهم وساءني – ولم تصعد ولم تتصوب).

فقد وظَّف الطباق – ذلك اللون البديعي –؛ لإبراز معاناته، ومدى القلق النفسي الذي يعانيه، ومن الممكن اعتباره أيضاً مؤثراً صوتياً يخدم الإيقاع الموسيقى، وعلى ذلك فقد جمع البحتري في تلك الأبيات بين الطباق الصوتي، وحسن التقسيم.

ويصور البحتري حياته بعد أن تركه الفتح وتخلى عنه، وأسعد شامتيه فيه بالغصة التي ستلازم صدره أبداً ، ولاتكاد تبرحه في كل الأحوال، هذا وإن كان له بقاء بعده ، فهو يشك في ذلك (إن أقمت) ، فيشير إلى انتهاء حياته بانتهاء علاقته بالفتح، فالشاعر من بعده لن يمدح غيره، ولن يصافي غيره، فلا طعم للحياة بسواه.

لقد استطاع الشاعر أن ينقل حالته النفسية بكثرة تساؤلاته، وبالتكرار، وبالجمع بين الأضداد. ولم يكتف بذلك، بل ساعدته الموسيقى أيضاً، إذ اعتمد البحر الكامل وزناً لقصيدته، وهو بحر كثير المقاطع ، فصب فيه كل أشجانه وأحزانه؛ عله يحرك قلب الفتح ويعيد وصله.

فموسيقى القصيدة ليست عاملاً مستقلاً عن الشعور، وعن المعاني (فالشاعر في حال اليأس والجزع يتخير عادةً وزناً طويلاً كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه، ما ينفس عنه حزنه وجزعه)[1]. وقد اتحدت الألفاظ مع الموسيقى معبرة عن انفعاله، فجاءت موحية معبرة عن الألم الذي يعانيه، مثل (مغضوب – غصة – لم يستر – ساءني) .

وقد يعمد البحتري إلى الطباق، ويكثفه معبراً عن مشاعره، ومن ذلك قوله يمدح الفتح قائلاً:

مِنّي وَصْل، ومِنكَ هَجْـرُ ... وفيَّ ذُلٌّ، وفيك كِبْـرُ
وما سَوَاء إذا التقيْنَـــا ... سَهْلٌ على خُلَّةٍ وَوَعْـرُ
إني–وإن لم أَبُحْ بِوَجْدِي– ... أُسِرُّ فيك الذي أُسِـرُّ
ياظالمـــاً لي بغَيْرِ جُرْمٍ ... إليكَ من ظُلْمِكَ المَفَرُّ
أنت نعيمي، وأنت بؤسي، ... وقد يَسُوءُ الذي يَسُـرُّ
تَذْكُرُ كَمْ ليلةٍ لَهَوْنـــا ... في ظِلِّها والزمانُ نَضْرُ
غابَ دُجاهـا، وأَيُّ لَيْلٍ ... يَدْجُو عَلينا وأنت بَدْرُ؟
إفضـالُ(فَتْحٍ) عليَّ جَمّ ... ونَيْلُ (فَتْحٍ) لَدَيَّ غَمْرُ
المُنْعِمُ، المُفضِلُ المُرَجَّى ... والأَبْلَجُ، الأَزْهَرُ، الأَغَرُّ[2]

إذ يشكو الشاعر من سوء المعاملة ، فبالرغم من حبه الشديد، إلا أنه لا يجد إلا الهجر والجفاء، ويظهر هذا الكم من الجور والظلم الواقع على الشاعر، ويظل الطباق يلقي ظلاله على المقطع كله، مثل قوله (وصل / هجر – ذل/ كبر– سهل/ عسر – أبح/ أسر–

---

(1) إبراهيم أنيس – موسيقى الشعر – ص١٧٣–١٧٤.

(2) ديوان البحتري – جـ ٢ – ص ١٠٥٠–١٠٥١ .

نعيمي/ بؤسي)، وتضفي لفظة (ظالماً) مغزى الطباق فتزيد من قسوة الأمر على البحتري، فهو تعبير عن حالته المكتظة بالحيرة من سوء المعاملة التي يتلقاها بالرغم من حبه.

وهنا يجمع الشاعر بين الطباق والشرط في قوله (وما سواء إذا التقينا... سهل علي خلة وعسر)، فهو وإن كان يتمنى اللقاء، لكنَّه على علم باستحالته، وصعوبة مناله، فيوقع الجملة الشرطية لهذا اللقاء، الذي يرى تحقيقه مستحيلاً، وحتى إن تم فيستوي لديه وقتها (السهل والصعب).وتشتد أزمة الشاعر عندما تتحول محبوبته التي يتمنى لقاءها مصدر بؤسه وشقائه، فيأتي بالطباق (يسوء – يسر) فيزيد من صورة معاناته التي يلقاها، فلا يجد أي حيلة سوى أن يطلب الرحمة والعطف، مذكّراً إياها بما كان بينهما من ود.

لقد رسم الطباق والإيقاع في المقطع السابق صورة للحياة التي يعيشها الشاعر في ظل القطيعة والهجر الذي يلقاه. واستطاع البحتري باستخدامه الطباق أن يحول قصيدته إلى قطعة موسيقية تطرب السامع، ومن الملاحظ أن استخدام الشاعر للطباق استخدام سهل بسيط، ولكنها البساطة المتقنة، والسهولة الرفيعة التي تهتم بالإطراب، ولمس المشاعر والأحاسيس.

ومن القصائد التي يعاتب فيها (الفتح بن خاقان)، ويعتذر إليه، ويذكّره فيها بالود الذي كان بينهما، قصيدته التي يستهلها بقوله:

يَهُونُ عليها أن أبيتَ مُتيَّما أُعالجُ وجداً في الضميرِ مكتَّما[1]

حيث يقول مصوراً تردد الفتح بين الرضا والغضب:

وأَصْيَدَ إنْ نازَعْتُهُ اللَّحْـظَ رَدَّهُ كَلِيلاً، وإن راجَعْتُهُ القَوْلَ جَمْجَمَا

ثَنَاهُ العِدَى عني، فأصحب مُعْرِضاً وأَوْهَمَهُ الوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَـا

---

(1) ديوان البحتري – جـ ٣– ص ١٩٨١.

وقد كان سَهْلاً وَاضِحـاً فَتَوَعَّرِتْ رُبَاهُ، وطَلْقاً ضاحِكاً، فَتَجَهَّمـا[1]

وتتملك البحتري عزة نفسه، ويشعر بقيمته شاعراً وفناناً، وبقيمة شعره الذي قاله في الفتح، وكأنه الزهر والنجوم، فيقول:

أَلَسْتُ الْمَوَالِي فِيكَ نظمَ قَصَائدٍ هِيَ الأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُما؟

ثَنَاءٌ كأنَّ الرَّوْضَ مِنْهُ مُنَوَّراً ضُحىً، وكأَنَّ الوَشْيَ فيهِ مُسهَّمَا[2]

وترتفع حدة العتاب عند البحتري حتى تقترب من التهديد المقنَّع، فيقول :

فلَوْ أَنَّني وَقَّرْتُ شِعْرِي وَقَارَهُ وأَجْلَلْتُ مَدحِي فِيكَ أن يُتَهَضَّمَا

لأَكْبِرتُ أَنْ أُومِي إليكَ بِإصبعٍ تَضَرَّعُ، أو أُدنى لِمَعذِرَةٍ فَمِـا

وكان الذي يأتي بهِ الدَّهْرُ هَيّناً علىَّ، ولو كانَ الحِمامَ المُقَدَّمَا

ولكنني أُعْلِي مَحَلَّك أَنْ أُرَى مُدِلاً، وأَسْتحييك أن أَتَعظَّمـا[3]

وتنتهي حياة الفتح في مجلسه أثناء حضور البحتري، الذي فجع بموته مباغتة ، يقول البحتري:

مَحَلٌّ على القَاطُولِ أخْلَقَ داثِرُهْ، وَعادتْ صُرُوفُ الدّهرِ جَيشاً تُغاوِرُهْ

كأنّ الصَّبا تُوفي نُذُوراً إذا انبَرَتْ تُرَاوِحُهُ أذْيَالُهَا، وَتُبَـــــــاكِرُهْ

---

(1) ديوان البحتري – جـ٣– ص ١٩٨٣.

(2) المصدر السابق – جـ٣– ص –١٩٨٤.

(3) ديوان البحتري – جـ٣ – ص ١٩٨٤.

وَرُبّ زَمَـــانٍ نَاعِمٍ ثَمّ عَهْـــدُهُ تَرِقُّ حَوَاشِيهِ، وَيُونَقُ نَاضِـــرُهْ[1]

فبهذه الأبيات يستهل البحتري مرثيته، وقد (نظمها يوم مصرع المتوكل بالذات، فإن إلى جانب التأثر السريع للحادث، الذي شهده أبياتا تنبئ عن أمله في أن يلي الخلافة المعتز دون المنتصر. ولقد أجمع المؤرخون على أن المنتصر كان شريكاً في التآمرعلى قتل أبيه؛ لأن الوزير عبيد الله بن الخاقان، والفتح بن الخاقان كانا يوغران قلب المتوكل على ابنه المنتصر، ويرغِّبانه في عزله من ولاية العهد ليكون الأمر للمعتز، وكان المتوكل قد استمع لمشورتهما بأن يقوم المعتز في يوم جمعة بالصلاة بالناس، وفي الجمعة التالية حسَّنا له أن يصلي هو بالناس، فاستمال المنتصر إليه قواد الأتراك، ودبرا معه مؤامرة تولاها (بغُا الشرابي)، فأمر (باغر التركي) الذي كان يتولى حراسة الخليفة؛ فدخل عليه ورجاله، وقد أخذ منه الشراب، فضربوه بالسيف، وكان معه الفتح فألقى بنفسه عليه فقتلوه معه، وتروي بعض المراجع أن البحتري كان حاضراً في هذا المجلس واختبأ)[2]

ويذكر البحتري في مقدمة مرثيته (القاطول) وهو نهر حُفر في زمن المتوكل، فالمكان (محل) قفر، لعبت به صروف الدهر، وتعاورته رياح الصبا؛ لتطمس معالمه، ولكن هذا المكان الذي أصبح طللاً ليس من مخيلة الشاعر، بل هو مكان واقعي كان يحفل بالخلافة، ولكن الغدر حوله إلى طلل، فبلى واندثرت كل معالم عمرانه، فلم يعد القصر قصراً، كما لم يعد هو ذلك البناء العامر الممشوق، زالت عنه حيثيته كعمل معماري رصين، ليصبح مجرد (محل) أي موضع لا يميزه عن سائر المواضع شيء، فهو (محل على القاطول) مجرد مكان عافٍ في هذا الموقع، وإذا كان لايزال منه بقية فهي بقية داثرة لا حياة فيها، لقد اندثر المكان، وأصبح مرتعاً لنكبات الزمن ومصائب الأيام تلقي عليه بظلالها الكئيبة، وتصب غاراتها على هذا المكان الذي أصبح خُواءً من كل شيء. ويشبه الشاعر حركة ريح

---

(1) المصدر السابق – جـ٢ – ص ١٠٤٥.

(2) ديوان البحتري – جـ٢ – هامش ص ١٠٤٥.

الصبا وهي تهب عليه بموقف إنسان أخذ على نفسه عهداً، ونذر نذراً ، فأصبحت هذه الرياح تهب على القصر في رواحها وبكورها، فصارت زيارتها حتمية ذهاباً و إياباً.

ويلخص البحتري حياة القصر السعيد الماضية بتعبيره (زمان ناعم)، وربطه بقوله (ثم عهده)، فهذا الزمان مرتبط بالمكان(القصر)، وهو عهد جميل وزمان طيب (ترق حواشيه ويونق ناضره). لقد عبَّر البحتري في أبياته الثلاثة الأولى عن الأمر من خلال الصور التي جسمت المشاهد، وشخصت المجردات .

يقول البحتري :

تَغَيّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِيّ وأُنْسُهُ ... وَقُوّضَ بَادي الجَعْفَرِيّ وَحَاضِرُهْ

تَحَمّلْ عَنْهُ سَاكِنُوهُ، فُجَـاءَةً ... فَعَادَتْ سَوَاءً دُورُهُ، وَمَقَابِـرُهْ

إذا نَحْنُ زُرْنَاهُ أجَدّ لَنَا الأسَـى ... وَقَد كَانَ قَبلَ اليَوْمِ يُبهَجُ زَائِرُهْ

وَلم أنسَ وَحشَ القصرِ،إذ رِيعَ سِرْبُهُ ... وإذْ ذُعِرَتْ أطْلاَؤُهُ وَجَـآذِرُهْ

وإذْ صِيحَ فيهِ بالرّحِيلِ، فهُتّكَتْ ... عَلى عَجَلٍ أسْتَارُهُ وَسَتَائِـرُهْ

وَوَحْشَتَهُ حتى كأنْ لم يُقِمْ بِـهِ ... أَنيسٌ، ولم تَحْسُنْ لِعَيْنٍ مَنَاظِرُهْ

كأن لم تَبتْ فيهِ الخِلافةُ طَلْقةً ... بَشَاشَتُها، والمُلْكُ يُشْرقُ زاهِرُهْ

ولَمْ تَجْمَعِ الدُّنيا إليهِ بَهَاءَهـا ... وبَهْجَتَهَا والعَيْشُ غَضٌّ مَكاسِرُهْ

فأينَ الحِجَابُ الصَّعْبُ حيث تَمَنَّعتْ ... بِهَيْبَتِهَا أبوابُهُ وَمَقَاصِـــــرُهْ؟

وأين عَمِيدُ النَّاسِ في كل نَوْبَةٍ ... تَنُوبُ، ونَاهِي الدَّهْرِ فيهم وآمِرُهْ[1]

---

(1) ديوان البحتري – جـ٢– ص١٠٤٦–١٠٤٧.

في الأبيات السابقة يصور البحتري قصر الخلافة (الجعفري) وما طاله من تخريب، وتقتيل، ودمار، وإشاعة ذعر في أرجائه. تغيّرت الأمور وتحولت من حال لحال، من مكان عامر بأهله لمكان خرب لا حياة فيه. ويوضح الشاعر أهم الظواهر التي ترتبت على حادثة الغدر، فكان رحيل الخليفة وأهله، وكذا ذعر حيوانات القصر. ويعدل البحتري عن الأسلوب الأول في تنكير المكان (محل) إلى التعريف (الجعفري)، فعاد مكاناً قفراً، إذ هجر المدينة سكانها، والوحوش ربع سربها، والظباء والبقر الوحشي، فقد توالت غاراتها ومؤامراتها، فتشكل الإقفار جراء رحيل الجماعة عنه رحيلاً مفاجئاً، دون سابق إنذار. مما شكل رعباً حل بكل عناصر الجمال (أطلاؤه وجآذره)، وقد استطاع البحتري أن يحقق انسجاماً بين المتضادات، فليس ثمة فرق بين الماضي والحاضر (بادي وحاضر)، ولا فرق بين بيوت الأحياء وبيوت الموتى (دور ومقابر)، وهذا الجمع بين المتنافرات إنما يكشف عن حس الضياع الذي سيطر على الشاعر حينها، حتى أنه أصبح يرى كل المختلف متشابه، فالكل سواء لديه.

ويتعجب الشاعر من غياب حراس القصر وقت وقوع الجريمة، ويتعجب كيف آل الأمر إلى ما صار إليه القصر من اختفاء الخليفة عنه، وقد كان السيد المطاع في كل أمر.

وقد نوَّع البحتري في أساليبه ليصور مشهداً حزيناً، فجمع بين الأساليب الخبرية والإنشائية وخاصة الاستفهام، فجاءت أفعاله (تغير – قوض – تحمل عنه– ربع – ذعر – صيح – هتكت – لم يقم به – لم تحسن – لم تبت – لم تجمع) كلها توحي بكآبة المنظر، وحتى الأفعال التي توحي بالسعادة والرقة (أجد – يبهج – تحسن – يشرق) جاءت في صورة نفي وإزالة للحدث. ومن اللافت للانتباه كثرة الأفعال المبنية للمجهول التي أوردها الشاعر (قُوض– رِيع – ذُعرت – صِيح – هُتكت – يُقم) فكأن الشاعر قد أهمه أكثر ما حدث بالفعل، ولم يهمه من قام بالفعل، هذا فضلاً عن أن هذه الأفعال وبصيغتها المبنية للمجهول توحي بأن ما حدث كان قدراً لاسبيل إلى الفرار منه. إن هذا التكثيف في استخدام الأفعال يجسد الموقف للقارئ، وكأنه يرى الأحداث تجري أمام

عينيه.

ويستنكر البحتري هذه الفاجعة ، وكأن نفسه لا تستطيع أن تتحمل فكرة قبولها. يقول:

تَعَرّضَ ريبُ الدهرِ من دونِ فتحِهِ وَغيّبَ عَنهُ في خُرَاسَانَ، طاهِرُهْ
وَلَوْ عَاشَ مَيْتٌ، أوْ تَقَرّبَ نَازِحٌ لَدَارَتْ مِنَ المَكْرُوهِ ثَمّ دَوَائِرُهْ
وَلَوْ لعُبَيْدِ الله عَــوْنٌ عَلَيْهِمُ لَضَاقَتْ عَلَى وُرّادِ أمْرٍ مَصَادِرُهْ[1]

فالفتح بن خاقان دافع عن المتوكل فقُتل، وهذا ما دفع البحتري إلى إضافة الاسم العلم (فتح) إلى ضمير الغائب العائد على (المتوكل)، ليصور مدى الترابط بينهما، فالأمر قد تم تدبيره في غيبة (طاهر بن عبد الله بن الحسين) و (عبيد الله بن يحيى بن خاقان)، فلم يكن سوى الفتح بن خاقان الذي لم يملك ما يدافع به عن نفسه وعن صديقه غير أن يُلقي نفسه عليه؛ فيلقى مصيره المحتوم، والبحتري وقتها أعزل من أي سلاح.

يلجأ الشاعر لتكرار حرف الامتناع (لو) موحياً عن شعوره بالندم جرَّاء ما حدث حوله، وهو في ذهول من أمره. ولايسع البحتري إلا أن يتخذ من الدعاء وسيلة يعبر بها عن يأسه. يقول:

فلا مُلّيَ البَاقي تُرَاثَ الذي مَضَى وَلاَ حَمَلَتْ ذاكَ الدّعَاءَ مَنَــــــابِرُهْ
وَلاَ وَألَ المَشْكُوكُ فيهِ، وَلا نَجَـا من السّيفِ ناضِي السّيفِ غدراً وَشاهِرُهْ[2]

فصروف الدهر التي حولت المكان، وأحالته إلى قفر بالي، وساوت بين دور الأحياء والأموات، أبخل من أن تمن على القاتل بالخير.

---

(1) ديوان البحتري – جـ٢– ص ١٠٤٧–١٠٤٨.
(2) ديوان البحتري – جـ٢ – ص ١٠٤٩.

يطلق البحتري زفرات حزنه بألفاظ موحية تناسب هول الحدث، معبراً بذلك عن انفعالاته، بالإضافة إلى أن التماثل التركيبي في الجمل، وعودة الضمير (الهاء) الذي ختمت به القافية يعبر عن حزنه وألمه من ذلك الفقد الغادر، فقد جعل من المرثي صورة تماثل صورة المكان البالي المهجور. ويأتي اختيار القافية (الهاء الساكنة) مناسباً جداً للحالة النفسية التي يمر بها الشاعر، وكأن الصوت ينقطع فجأة بعد إرساله، فالبحتري لا يُخرج ألفاظاً، بل يُخرج من قلبه زفراتٍ حزينة وآهاتٍ موجعة .

وتبرز شاعرية البحتري في هذه المرثية من خلال التصوير والتعبير في الاجتياز بهذا الحدث المفزع دائرة الخاص، وهو(مقتل المتوكل والفتح بن خاقان) إلى ساحة العام، وهي (النهاية الحتمية لكل البشر) ، فيربط القصيدة بالإنسان في أي زمان ومكان.